**الجامعة الإسلامية بغزة – كلية أصول الدين**
**مؤتمر الدعوة الإسلامية ومتغيرات العصر (7-8 ربيع الأول 1426هـ ، 16-17 أبريل 2005م)**

# الأساليب البيانية والخطاب الدعوي الواعي

**أ.د. نعمان شعبان علوان**
أستاذ البلاغة العربية والإعجاز القرآني
كلية الآداب – قسم اللغة العربية
الجامعة الإسلامية – غزة

## تمهيد:

إذا كان الخطاب هو جملة ما يصدر عن المتكلمين من أجل الإقناع والتأثير، فلا بد لهذا الخطاب أن يأخذ بعين الاعتبار جملة من المعطيات والاعتبارات منها: مصالح المخاطبين، بالإضافة إلى القناعات المكنونة التي قد تكون متوافقة مع ما يدعوا إليه هذا الخطاب أو متعارضة معه، وكذلك لا بد من مراعاة أحوال المخاطبين على أن يكون الخطاب مناسباً لمقتضى أحوال المخاطبين "خاطبوا الناس على قدر عقولهم" كما يقول القائل، وكلنا يعلم أن البلاغة والبيان يدعواننا إلى مطابقة الكلام لمقتضى أحوال السامعين لما في الأحوال والمقامات من اختلاف بين الناس، ولأن الخطاب لا يحقق عنصر التأثير في المخاطب ما لم يكن هذا الخطاب موافقاً لحاله ومقامه، لأنه لكل مقام مقال، والتعرف على حال المخاطب يحتاج إلى ذكاء وفطنة ليصل المتكلم إلى درجة عالية يقرأ من خلالها ما في أعين المخاطبين ويقرأ من خلالها تقاسيم وجوه القوم، وقد قالت العرب للوليد بن المغيرة لما نظرت في وجهه فأيقنت أنه تأثر بما سمعه من محمد عليه الصلاة والسلام "لقد رجعت إلينا بغير الوجه الذي ذهبت به" وبهذا تكون النظرة متفحصةً عميقةً يعقبها خطاب دقيق واعٍ، وبالوعي والذكاء يستطيع المتكلم أن يوصل كل ما يريده إلى المخاطبين ويتحرر من البساطة المؤلمة التي لا تؤسس شيئاً ولا توصل إلى شيء إن كان خطاباً أو سلوكاً وإلا ما معنى قول الرسول عليه الصلاة والسلام "إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة" فمن يصنع سحر البيان إذاً! إنه الإنسان الواعي الفطن البليغ، الذي قرأ اللغة وفهم أنها أداة الوعي الإنساني للمجتمع، ولا يتحقق ذلك إلا عن طريق التخاطب، وهي في الوقت نفسه أداة وعي الإنسان بنفسه، لأن المعاني تتردد في أعماقنا دون أن نسمع لها صوتاً بنوعٍ من الحوار مع النفس قبل أن تخرج إلى الآخرين، ولذلك لا بد للمتكلم من تنمية قدراته التعبيرية والثقافية، وتفعيل أسلوبه بوسائل الإقناع والتأثير، والقرب من الجماهير التي يخاطبها، ويخاطب الناس على قدر مستوياتهم "حتى لا يؤتى السامع من سوء بيان القائل ولا يؤتى القائل من سوء فهم السامع" كما

يقول البلاغيون ولأن الخطاب الواعي خطاب استيعابي يمد خطوط التواصل إلى الجميع حتى يحقق الهدف الذي يسعى إليه، فإذا كان لكل حرب أسلحتها فإن سلاح الأفكار هو الذي يتوجه إلى العقل ويحاور الفكر ويعمل على زحزحة القناعات عن مواضعها وإثبات قناعات أخرى في مكانها، لأن مواجهة الكلمة بالكلمة أشد صعوبة وأبعد أثراً وتحتاج إلى استعدادٍ أكثر بكثير من أي مواجهة أخرى، ولهذا كان للكلمة الموقع الأول في التقدير وليس من قبيل الصدفة أن تكون أول مفردةٍ في الرسالة السماوية (اقرأ)، وقديماً قيل في البدء كانت الكلمة".

وربما يتنوع الخطاب فيكون خطاباً سياسياً أو ثقافياً أو دعوياً أو أدبياً، والخطاب الدعوي هو الذي يكون للتوجيه والإرشاد، وقد قامت مسئولية الأنبياء والرسل والأئمة والعظماء والصالحين على تبليغ رسالات الله في الأرض، لتوجيه الناس إلى الحق، ويعتبر الخطاب الدعوي أحد تجليات الفكرة الإسلامية التي قامت على نداء الدعوة إلى الله، ولابد لهذا الخطاب أن يكون منسجماً مع من يخاطبهم من الناس، وأن يصدر عن بصيرة ووعي، وأن يخاطب الناس على قدر عقولهم.

ولذلك لا بد من التعرف على بعض الأساليب البيانية التي تنمي هذا الجانب فتعرف الإنسان: متى يتكلم، وماذا يتكلم، ومتى يسأل، وهل يسأل عن شيء يجهله أم يعلمه، وإذا سئل بماذا يجيب، هل تكون الإجابة مباشرة أم غير مباشرة، ومتى يوري في الخطاب ومتى يتكلم بكلام يحمل أكثر من معنى، فربما يجيد أحدنا القراءة والكتابة وحفظ القواعد إلا أنه لا يجيد مخاطبة الآخرين، وحتى يتمكن المتكلم من الوصول إلى تحقيق الخطاب الواعي لابد من الإلمام بالقضايا التالية:

**أولاً:** التعرف على بلاغة القرآن الكريم.

**ثانياً:** التعرف على بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم.

**ثالثاً:** التعرف على بلاغة الأنبياء.

**رابعاً:** التعرف على ظاهرة مقتضى الحال عند البلاغيين

**خامساً:** التعرف على بعض الأساليب البلاغية التي تنمي جانب الوعي والفطنة في الخطاب، وكذلك التعرف على بعض فنون القول.

**وسأعمل على توضيح هذه القضايا في ثنايا هذا البحث إن شاء الله تعالى**

## بلاغة القرآن الكريم:

إن أروع وصف للقرآن وبلاغته يتمثل في قول الرسول عليه الصلاة والسلام "هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه وهو الذي لم ينته الجن إذ سمعوه حتى قالوا: ﴿إِنا سمِعنَا قُرآناً عجباً ۝ يهدِي إِلَى الرشْدِ فَآمنا بِهِ﴾ من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم"(1).

وقد شُغل العرب به منذ أن هبط به الوحي واستمع إليه الناس وأسرع الباحثون -بعد أن قامت الفتوحات الإسلامية وانتشر الإسلام شرقاً وغرباً- للبحث في سبب إعجازه ورأوا أن ذلك يرجع إلى ما فيه من بلاغة ساحرة، وأسلوب فريد، وتأثير عميق، وخاصة أن الذين خاطبهم القرآن لم يعجبوا بشيء قدر إعجابهم بحسن البيان، وبلاغة القول، وقد رأوا في القرآن نوعاً من البيان لم يعرفوه من قبل، فانجذبوا إليه، واعترفوا بتأثيره، وخروا صاغرين أمام بلاغته وحلاوته.

فكل كلمة من كلمات القرآن لها وقعها الخاص في نفوس المستمعين، وكل عبارة تجتمع في كلمات لها صورة رائعة تصور المعاني بالصورة كاملة، وأجزاؤها تعطي صوراً وظلالاً، وتتكون من هذه الصور الجزئية لوحة كاملة متناسقة تهز الوجدان وتترك في القلوب أعمق الأثر، ولذلك جعل أبو هلال العسكري الوقوف على إعجاز القرآن مرهوناً بعلم البلاغة فقال: "أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة، لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خص الله به كتابه من حسن التأليف وبراعة التراكيب وما شحنه به من الإيجاز البديع والاختصار اللطيف إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها؛ لأن البلاغة تعتبر من أهم وسائل إدراك الإعجاز القرآني، وذلك بأن يتمكن البليغ فيها ويتقنها ويفهم أساليبها وفنونها"(2).

وهذا يمثل قمة الجمال في البيان القرآني وفي البنية التكوينية له والتي تتكون كما ذكرنا من العناصر التالية:

**أولاً:** جمال العناصر الأساسية المكونة له.

**ثانياً:** انسجام هذه العناصر الأساسية مع بعضها وعدم تنافرها.

**ثالثاً:** جمال المعنى ونبل المقصد الذي تعبر عنه هذه التركيبة.

فينظر في الحرف بين الحرفين ملاءمة واحتباكاً، وفي المفردة بين المفردتين تناسباً واطراداً، وفي الجملة إزاء الجملة وضعاً وتعليقاً.

وبناء على ذلك يتم تشكيل المشهد القرآني الكامل من خلال المفردات القرآنية التي تتكون فيها الجمل ثم الجمل القرآنية التي يتكون منها الصورة القرآنية ثم الصور القرآنية التي تجتمع مع بعضها البعض لتكون المشهد القرآني(3). ولذلك يجب علينا أن نبحث عن منبع السحر في القرآن والذي "لابد كامن في صميم النسق القرآني"(4).

وهذا ما بينه الإمام (الخطابي) عندما تحدث عن بلاغة القرآن ونظمه مبيناً أن الكلام يقوم بأشياء ثلاثة لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم، ثم إن القرآن هو الذي جمع نهايات الفضل في هذه العناصر الثلاثة، فإذا تأملته وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلائماً وتشاكلاً من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها والترقي إلى أعلى درجات الفضل في نعوتها وصفاتها"(5).

قال تعالى: ﴿الرحمن*علم القُرآن*خَلَقَ الْإِنْسان*علمه الْبيان﴾(6)، أي علمه النطق والتعبير والكشف عما في نفسه بطريقة واضحة بينه.

إن القرآن متميز بأسلوبه ونظمه وبلاغته المنفصلة والمتصلة وأعني بالمنفصلة ما في عبارات القرآن من حقيقة ومجاز، من فصاحة وبلاغة من تشبيه وكناية... شيء يجعل الكلام مريحاً لينا إذا أراد الله لقرآنه أن يكون لينا، وعنيفاً قاصفاً إذا أراد الله لآياته أن تكون عنيفة قاصفة، ويتضافر مع ذلك كله ألفاظه الصارخة أو عباراته الهادئة فتعطي في النهاية تياراً سلساً ينساب إلى مرفأ القلوب فيزيل عنها صداها ويبين وحشتها، وأما بلاغته المتصلة فمنبعها طريقة تركيب ألفاظ القرآن لتصنع جملة، وتركيب الجملة مع أختها لتقيم جملاً وتراكيب ومشاهد وضعت كعبارات بطريقة معينه وبأسلوب محدد يختلف في موضع عن موضوع ليس في طوق البشر مجاراته أو اتباعه أو السير على منواله(7).

ولذلك لابد من الوقوف عند آيات القرآن الكريم، والكشف عن أسرار التعبير البلاغي في نظم القرآن حتى نبين أثر الاستعارة هنا والتشبيه هناك والقيمة البلاغية للتقديم وأسلوب القصر وخروج الكلام عن مقتضى الظاهر وإظهار العلاقة بين هذه الأساليب وأثرها في تركيب الصورة وتوضيح المعنى. ثم البحث في مكانه المفردة القرآنيه في سياقها وهل يمكن أن ينوب عنها غيرها، حتى نشعر حقيقة بهذه البلاغة العالية التي تقف أمامها القلوب والأفئدة ولا تملك إلا الإيمان والتسليم بها.

إن أسلوب القرآن يجري على نسق بديع، ولذلك تحير العرب في أمره إذ عرضوه على موازين الشعر فوجدوه غير خاضع لأحكامه، وقارنوه بفنون النثر فوجدوه غير لاحق بالمعهود

من طرائقه فكان أن انتهى الكافرون منهم إلى أنه السحر واستيقن المنصفون منهم بأنه تنزيل من رب العالمين قال تعالى: "كِتَاب فُصلَتْ آياتُه قُرآناً عربِياً لِقَومٍ يعلَمون"(8)

ثم إن التعبير القرآني يظل جارياً على نسق واحد في السمو من جمال اللفظ، وعمق المعنى، ودقة الصياغة، وروعة التعبير، رغم تنقله بين موضوعات مختلفة من تشريع وقصص وأخبار غيبيه ومواعظ. مع العلم أنه خاطب كل الناس على اختلاف مداركهم وثقافتهم وعلى تباعد أزمنتهم وتطور علومهم، وكذلك المفردة في السياق القرآني وما تتميز به من جمال وقعها في السمع واتساقها الكامل مع المعنى واتساع دلالتها.

ولو أدرنا لغة العرب كلها على أن نجد كلمه تنوب عن كلمة في كتاب الله فلم نجد ولو أدخلنا شيئاً من كلامنا إلى كتاب الله لا ختل نظامه واعتل مذاقه في أذان سامعيه.

لذاك فالقرآن كله متناسق فيما بينه تناسقاً كاملاً في حروفه وكلماته وآياته وسوره وإليك بعض الآيات القرآنية التي تظهر لنا هذا البيان الرائع وهذه البلاغة المتميزة.

1. قال تعالى: ﴿يا أَيها الذِين آمنُوا ما لَكُم إِذَا قِيلَ لَكُم انْفِروا فِي سبِيل اللهِ اثاقَلْتُم إِلَى الْأرضِ أَرضِيتُم بِالْحياةِ الدنْيا مِن الْآخِرةِ فَما متَاع الْحياةِ الدنْيا فِي الْآخِرةِ إِلا قَلِيلٌ﴾(9)، فلو نظرنا إلى الأداء الفني الذي قامت به لفظة: "اثاقَلْتُم" بكل ما تكونت به من حروف ومن صورة ترتيب هذه الحروف، ومن حركة التشديد على حرف "الثاء" والمد بعده ثم مجيء "القاف" الذي هو أحد حروف القلقلة، ثم "التاء" المهموسة و"الميم" التي تنطبق عليها الشفتان ويخرج صوتها في الأنف، فإن ذلك يوحي بمعنى الثقل والبطء في الحركة والالتصاق إلى الأرض، ولو حاولنا استبدالها بكلمه "تثاقلتم" فإنها لا تقوم مقامها لما فيها من خفة وسرعة بما لا يتناسق مع المعنى العام.
2. قال تعالى: ﴿وأَوحينَا إِلَى أُم موسى أَن أَرضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ علَيهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيم ولا تَخَافِي ولا تَحزنِي إِنا رادوه إِلَيكِ وجاعِلُوه مِن الْمرسلِين﴾(10)، انظر كيف جمعت هذه الآية بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين، أما الأمران فهما: "أرضعيه وألقيه"، وأما النهيان فهما: "لا تخافي ولا تحزني"، وأما الخبران فهما: "أوحينا" و"خفت" وأما البشارتان فهما: ﴿إِنا رادوه إِلَيكِ وجاعِلُوه مِن الْمرسلِين﴾.
3. قال تعالى: ﴿الر كِتَاب أَنْزلْنَاه إِلَيك لِتُخْرِج الناس مِن الظلُماتِ إِلَى النورِ بِإِذْنِ ربهِم إِلَى صِراطِ الْعزِيزِ الْحمِيدِ﴾(11)، فقد استعار الظلمات للضلال بجامع عدم الاهتداء في كل منهما، واستعار النور للهداية بجامع الاهتداء في كل منها، وهذا المسلك الأدبي يسميه البلاغيون استعارة تصريحيه، هذه الاستعارة تجعل الهدى والضلال يستميلان نوراً وظلمه، إنها تبرز المعاني المعقولة الخفية في صورة محسوسة، حية متحركة كأن العين تراها واليد تلمسها، ثم تأمل كلمه

"الظلمات" كيف تصور لك الضلال ليلاً دامساً يطمس معالم الطريق أمام الضلال فلا يهتدي إلى الحق، ثم تأمل كلمة "النور" كيف تصور لك الهداية مصباحاً منيراً ينير جوانب العقل والقلب ويوضح معالم الطريق أمام المهتدي، فيصل في سهولة ويسر إلى الحق فتسكن نفسه ويطمئن قلبه ويحظى بالسعادة في الدنيا والآخرة.

ما أجمل هذا التصوير وما أروعه إنه جمال اختص به القرآن في أداته التعبيرية في الحرف والكلمة والعبارة والسورة ومن شأن هذا الجمال أن يسترعي الأسماع ويثير الانتباه ويحرك الوجدان، فما علينا إلاّ أن نتأمل كلمات القرآن وآياته وتعبيراته وصوره ونغوص في أعماق معانية لنحاول الوصول إلى الأسرار البلاغية التي تكمن في كتاب الله، هذه الأسرار لا يبرزها إلاّ علم النظم وإلاّ بقيت محتجبة في أكمامها، حتى نستشعر حقيقته ونتشرب بيانه المعجز الذي لا يشبع منه العلماء ولا تنقضي عجائبه.

**بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم:**

عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيئته القرشية، التي عرفت بفصاحتها وبلاغتها حيث كانت أفصح القبائل العربية وذلك بحكم سكناها في مكة وقدوم جميع القبائل إليها في مواسم الحج، تسمع عن جميع القبائل فتختار أحسن ألفاظها وأرشقها وأدقها في التعبير عن المراد فتدخله في لغتها وتتداوله بألسنتها، حتى أصبحت أفصح العرب لساناً وأحسنهم لغةً. قال السيوطي في المزهر: (إن قريشاً أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانة عما في النفس)(12) ومع ذلك فقد كان رسول الله صلي الله عليه وسلم أفصح العرب بيد أنه من قريش "فقد اصطفاه الله لوحيه، ونصبه لبيانه، وخصه لكتابه، واصطفاه لرسالته وماذا عسى أن يكون وراء ذلك في باب الإلهام، وصفاء الحاسة، وثقوب الذهن، واجتماع النفس، وقوة النظر، ووثاقة الأمر كله بعضه إلى بعض(13).

ولا ريب "أن إتقان اللغة وترقي وسائل أدائها وتنوعها إنما هو انعكاس لما في فطرة الأجيال التي عكفت على هذه اللغة وصقلتها فصقلتهم وهذبتها فهذبتهم وأحكمتها فأحكمتهم وأودعوها دقائق نفوسهم فكانت في اكتمال بيانها صورة لاكتمال سلائقهم"(14) فقد هذب العرب كلامهم وبالغوا في إحكامه وتجويده وصياغته، إلاّ أن ذلك كان عن نظر متقدم وروية مقصودة، وكان عن غير تكلف يستعان له بأسباب الإجادة التي تسموا إليها الفطرة اللغوية فيهم، وقد بلغوا في القدرة على الإبانة عن أنفسهم حداً لم يبلغه جيل من أجيال الأمة في تاريخها كله، ويكاد يجمع أهل العلم على أن هذا الجيل والأجيال التي قبله هم الذين فجروا للناس ينابيع الكلام فاستقوا ومثلوا لهم مثلاً في البلاغة ومع كل هذه المواصفات إلا أنهم لم يسلموا من عيوب الاستكراه

والزلل والاضطراب... بيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفصح العرب على أنه لا يتكلف القول ولا يقصد إلى تزيينه ولا يبغي إليه وسيلة من وسائل الصنعة ولا يجاوز به مقدار الإبلاغ في المعنى الذي يريده، ثم لا يعرض له في ذلك سقط ولا استكراه"(15).

إن ألفاظ النبوة كما يقول الرافعي يعمرها قلب متصل بجلال خالقه ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه ... إن خرجت في الموعظة قلت أنين من فؤاد مقروح وإن راعت بالحكمة قلت صورة بشرية من الروح في منزع يلين فينفر بالدموع، ويشتد فينزو بالدماء وإذا أراك القرآن أنه خطاب السماء للأرض أراك هذا أنه كلام الأرض بعد السماء وهي البلاغة النبوية تعرف الحقيقة فيها كأنها فكر صريح من أفكار الخليقة، وتجيء بالمجاز الغريب فترى من غرابته أنه مجاز في حقيقة(16). ولذلك كثرت جوامع كلمة، وخاص أسلوبه، فلم يقصر في شيء ولم يبالغ في شيء، واتسق له في هذا الأمر على كمال الفصاحة والبلاغة ما لو أراده مريد لعجز عنه، وإن استطاع بعضه لم يستطع جميعه ومن أجل هذا المعنى وتمكنه فيه كان يكره الإطالة في الكلام بما يجاوز مقدار القصد به وقد تكلم رجل عنده فأطال، فقال النبي ﷺ : كم دون لسانك من حجاب؟ فقال: شفتاي وأسناني، فقال له: إن الله يكره الانبعاق(17) في الكلام، فنضر الله وجه رجل أوجز في كلامه واقتصر على حاجته".

ولا يفهم مما تقدم أنه ﷺ لم يكن يطيل الكلام إن رأى وجها لذلك، وربما فعل الرجل ذلك من غير حاجة للإطالة. وهذا هو مفهوم البلاغة المتمثل في مطابقة الكلام لأحوال السامعين ولذلك قال له الصحابة يا رسول الله ما رأينا الذي هو أفصح منك فقال وما يمنعني من ذلك؟ فإنما أنزل القرآن بلساني، لسان عربي مبين"(18). وهذا من مزايا البيان النبوي وما تقتضيه وظيفة النبوة من تعليم الناس والرفق بهم.

ولذلك كان التوجيه القرآني للرسول عليه الصلاة والسلام واضح كل الوضوح في الحرص على توصيل الكلام إلى قلوب السامعين والتأثير فيهم فقال: ﴿أولَئِكَ الذِين يعلَم الله ما فِي قُلُوبِهم فَأعرِض عنْهم وعِظْهم وقُلْ لَهم فِي أَنْفُسِهِم قَولاً بلِيغاً﴾(19)، كأن القول يودع مباشرة في الأنفس ويستقر مباشرة في القلوب.

إنها حقيقة لها وزنها تتمثل في كون الرسول ﷺ ليس مجرد واعظ يلقي كلمته ويمضي لتذهب في الهواء بلا سلطان كما يقول المخادعون عن طبيعة الدين وطبيعة الرسل أو كما يفهم الذين لا يفهمون مدلول الدين، إن الدين منهج حياة واقعية بتشكيلاتها وتنظيماتها وأوضاعها وقيمها وأخلاقها وآدابها وعباداتها وشعائرها كذلك"(20) فقد خاطب رسول الله الناس مقدراً أحوالهم ومراعياً اعتباراتهم فاستخدم عليه الصلاة والسلام التوجيه العام "ما بال أقوام" وكان هذا من

كناياته عليه الصلاة والسلام حيث يقول: "ما بال أقوام يتنزهون عن شيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية"، كناية عن حثه لقومه باتباعه وكناية عن ترفقه بهم والتخفيف عنهم بعتابه الرقيق دون أن يحدد واحداً من الذين خالفوه وإنما قال ما بال أقوام.

وقوله عليه الصلاة والسلام "ويحك أنجشه رفقاً بالقوارير" وكان أنجشه مولى رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فحدا بالإبل فطربت لحسن حدائه فأسرعت في سيرها وعليها النساء فقال له الرسول هذه العبارة "رفقاً بالقوارير".

والقوارير: كناية عن النساء، فالمرأة تحفظ الجنين كالقارورة التي تحفظ ما بداخلها، ولما في المرأة من الرقة والنضارة والمسارعة إلى الانكسار(21).

وقد ورد في كلامه عليه الصلاة والسلام صور متعددة، وأساليب متنوعة، وفنون شتى للبلاغة العربية فورد فيها الاستعارات والتشبيهات والمجازات والمحسنات بشقيها المعنوي واللفظي من طباق ومشاكله وتكميل وتتميم وأسلوب حكيم ومبالغة وجناس وسجع... الخ.

لما لهذا البيان النبوي من خصائص فقد أعطى النبي ﷺ جوامع الكلام، وهي ملكه وموهبة يقتدر بها على إيجاز الألفاظ مع سعة المعاني بنظم لطيف لا تعقيد فيه، يعثر الفكر في طلبه ولا التواء يحار الذهن في فهمه، فما من لفظة يسبق فهمها إلى الذهن إلا ومعناها أسبق إليه.

ولذلك وجب علينا أن نتعرف على بلاغة النبي ونتفقه في مضامينها وقوة بيانها حتى نأخذ منها ما يعيننا على مخاطبة الناس والتأثير فيهم.

## التعرف على بلاغة الأنبياء:

لابد من التعرف على بلاغة الأنبياء وذلك من خلال قراءة ما ورد عنهم في كتاب الله وخاصة ما يتعلق بمخاطبة أقوامهم ومحاوراتهم ودعوتهم للإيمان بالرسالة السماوية التي بعثوا من أجلها وسأعمل على تحليل بعض النماذج تحليلاً بلاغياً للاستفادة منها:

### 1- نوح عليه السلام:

دعا نوح قومه زمناً طويلاً واستخدم معهم أساليب متعددة في مخاطبتهم للدعوة فدعاهم علانية مظهراً لهم الدعوة ومجاهراً بها، ودعاهم سراً فكان يكلم الرجل بعد الرجل وكان يدخل إلى بيوتهم ليدعوهم حتى لا يرى أحدهم الآخر، دعاهم على وجوه متعددة وأساليب متفاوتة من أجل عبادة الله، إلا أنهم عصوه ورفضوا سماعه قال تعالى: ﴿قَالَ رب إِني دعوتُ قَومِي لَيلاً ونَهاراً ۞ فَلَم يزِدهم دعائي إِلا فِراراً ۞ وإِني كُلما دعوتُهم لِتَغْفِر لَهم جعلُوا أَصابِعهم فِي آذَانِهم واستَغْشَوا ثِيابهم وأَصروا واستَكْبروا استِكْباراً﴾(22).

فإخباره عليه السلام أنهم جعلوا أصابعهم في آذانهم مجاز مرسل علاقته الكلية حيث ذكر الكل وأراد الجزء لأنه لا يمكن وضع الأصابع كلها في الآذان، بل المقصود طرف الأصابع، ولكنه عبر بذلك ليدل على شدة إعراضهم عن الحق، حيث حرصوا على عدم إدخال أي كلمة إلى مسامعهم. نعم إنها بلاغة النبوة ووعي الخطاب.

وفي دعائه لربه لم يخص نفسه بالدعاء وإنما شمل الجميع مما يدال على أنه يجب أن يطال هذا الخير جميع الناس وأن يغفر الله أيضاً لجميع الناس قال تعالى: ﴿رب اغْفِر لِي ولِوالِدي ولِمن دخَلَ بيتِي مؤْمِناً ولِلْمؤْمِنِين والْمؤْمِنَاتِ﴾[23] فانتقل من الخاص إلى العام لإفادة العموم والتنبيه على فضل الخاص فقوله "المؤمنين والمؤمنات" لفظان عامان يدخل فيهما كل ما ذكر قبلهما، وكأن الخاص ذكر مرتين، مرة على انفراد ومرة ضمن العموم وفي هذا عناية واهتمام بذكر الخاص.

## 2- إبراهيم عليه السلام:

إننا نتعلم منطق الحجة والبرهان في محاورة الناس ومخاطبتهم ومناقشتهم وذلك من خلال موقفين:

**الموقف الأول:** عندما كسر إبراهيم عليه السلام الأصنام إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون ليكون مدخلاً للحوار، لأن القوم سيرجعون إلى إبراهيم فيحاججهم بما سيأتي، وإما أن يعودوا إلى صنمهم الكبير فيسألونه عن الفاعل فإذا رجعوا إليه لم يجدوا عنده خبراً فيعلمون حينئذ أنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً ولا تعلم شيئاً وبهذا يردهم إلى عقولهم ليتفكروا ويتدبروا أمرهم.

ولذلك لما سألوا إبراهيم عليه السلام ﴿أَأَنْتَ فَعلْتَ هذَا بِآلِهتِنَا يا إِبراهِيم﴾ أجابهم بما لم يتوقعوه إذ قال لهم ﴿قَالَ بلْ فَعلَه كَبِيرهم هذَا﴾ مشيراً إلى الصنم الكبير الذي تركه ولم يكسره ثم قال لهم ﴿فَاسأَلُوهم إِن كَانُوا ينْطِقُون﴾ أي إن كانوا ممن يمكنه النطق ويقدر على الكلام ويفهم ما يقال، فلو رجع القوم إليه وقالوا يا إبراهيم إنك تعلم أنها لا تنطق، قال لهم فكيف تعبدون من يعجز عن النطق، وكان لهذه الحجة أثراً بالغاً على نفوس الناس، حيث رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته وفهموا أن من لا يقدر دفع المضرة عن نفسه ولا على الإضرار بمن فعل به ما فعله إبراهيم بتلك الأصنام يستحيل أن يكون مستحقاً للعبادة. وبهذا يتضح لنا أن إبراهيم عليه السلام لم يفعل فعلاً ولم ينطق بكلمة إلا ولها هدف يخدم رسالته التي جاء من أجلها، والتي تعمل على إعادة الناس إلى منطق العقل والتفكير السليم، وبهذا ينقذهم من ظلمات التبعية الجاهلية إلى نور الإسلام الحق.

وسأذكر ما ورد في كتاب الله حتى يتضح لنا حقيقة البلاغة النبوية التي تمتع بها إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۞ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۞ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۞ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۞ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۞ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۞ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنْطِقُونَ ۞ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ۞ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ۞ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ ۞ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(24).

**الموقف الثاني:** حوار (إبراهيم) مع (النمرود) وكان ملكاً للعراق حيث اغتر بملكه وأصابه الكبر فحاج (إبراهيم) في مسألة الإحياء والإماتة، "ذكر ابن عباس رضي الله عنه أن هذا الملك أتى برجلين فقتل أحدهما وعفا عن الآخر وادعى أنه أحيا وأمات"(25)، وتلك مغالطة لأن (إبراهيم) أراد أن الله هو الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد، وأراد النمرود أنه القادر على أن يعفو عن القتل فيكون ذلك إحياء، وعلى أنه القادر على القتل أن يقتل فيكون ذلك إماتة فكان هذا جواباً بعيداً عن المنطق. ولذلك وقف إبراهيم في هذه المسألة عند هذا الحد وانتقل بفطنته وذكائه وبلاغته إلى مسألة ثانية لا يمكن للنمرود أن يجادل فيها وأين هو من حجة إبراهيم عليه السلام ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ إنها حجة لا تجري فيها المغالطة ولا يتيسر للنمرود أن يخرج منها بمخرج مكابرة ومعاندة ولذلك انقطع وسكت وبهت.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(26).

**أصحاب القرية:**

علمتنا البلاغة العربية كيف يكون كلامنا مطابقاً لمقتضى الحال أي كيف نراعي المقامات التي نتحدث فيها، فمقام المنكر يختلف عن مقام الشاك المتردد، وهذا يختلف عن مقام خالي الذهن الذي ليس متردداً ولا منكراً.

وبناء على ذلك ينقسم الخبر إلى ثلاثة أقسام: الابتدائي، الطلبي، الإنكاري.

أما الأول: فيوجه إليه الخطاب خالياً من المؤكدات لأنه ليس متردداً ولا منكراً، وأما الثاني: فالتأكيد له أمر مستحسن لإزالة ما في نفسه من شك، وأما الثالث: فالتأكيد له أمر واجب وبأكثر من مؤكد وذلك على قدر ما تعرف من إنكاره.

وخير ما يرشدنا في هذا المقام: القرآن الكريم وذلك حينما يحدثنا عن أصحاب القرية التي جاءها رسل عيسى عليه السلام وهم أهل أنطاكية قال تعالى: ﴿واضرب لَهم مثَلاً أَصحاب الْقَريةِ إِذْ جاءها الْمرسلُون﴾(27)، ﴿إِذْ أَرسلْنَا إِلَيهم اثْنَين فَكَذبوهما فَعززنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنا إِلَيكُم مرسلُون ۝ قَالُوا ما أَنْتُم إِلا بشَر مِثْلُنَا وما أَنْزلَ الرحمن مِن شَيءٍ إِن أَنْتُم إِلا تَكْذِبون ۝ قَالُوا ربنَا يعلَم إِنا إِلَيكُم لَمرسلُون﴾(28)، فانظر كيف أكدوا لهم الخبر أولاً بإن والجملة الاسمية ﴿فَقَالُوا إِنا إِلَيكُم مرسلُون﴾ ولكنهم لما أمعنوا بالتكذيب وأصروا عليه وكذبوا الرسل زادوا في تأكيده ﴿قَالُوا ربنَا يعلَم إِنا إِلَيكُم لَمرسلُون﴾ فجاؤوا بمؤكدين جديدين الأول: القسم وهو مفهوم من قوله: ﴿ربنَا يعلَم﴾ والثاني : اللام ﴿إِنا إِلَيكُم لَمرسلُون﴾(29).

## موسى عليه السلام مع قومه:

في بداية دعوة موسى عليه السلام لقومه اتبع منهجاً يميل إلى استمالة المخاطبين وحثهم على التأمل والتفكر فيكون ذلك أدعى لهدايتهم وإيمانهم قال تعالى: ﴿فَلَما جاءهم موسى بِآياتِنَا بينَاتٍ قَالُوا ما هذَا إِلا سِحر مفْتَرى وما سمِعنَا بِهذَا فِي آبائِنَا الْأَولِين ۝ وقَالَ موسى ربي أَعلَم بِمن جاء بِالْهدى مِن عِنْدِهِ ومن تَكُون لَه عاقِبةُ الدارِ إِنه لا يفْلِح الظالِمون﴾(30).

فحملوا كلام موسى على أنه كلام مختلق مكذوب اختلقه من قبل نفسه ما سمعوا به من قبل آبائهم وأجدادهم، فما كان من موسى عليه السلام إلا أن خاطبهم بأسلوب فيه تعريض وخفاء ولم يصرح لهم بما يريده قبل أن يوضح لهم الحجة فقال لهم: الله أعلم بمن جاء بالهدى نحن أم أنتم مع علمه بأنه على الحق، وهم على الباطل. وقد سمى البلاغيون هذا الأسلوب "سوق المعلوم مساق غيره لنكته أو غرض"، وغرضه هنا "التعريض"، وهو عند البلاغيين "معنى يفهم من عرض الكلام وجانبه وسياقه وقرائن أحواله، والتلازم بين المعنى التعريضي والمعنى الحقيقي للألفاظ يرجع إلى المواقف الخاصة التي يقال فيها الكلام"(31).

ويشبه هذا الموقف ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام لقومه كما خبر به القرآن الكريم ﴿وإِنا أَو إِياكُم لَعلَى هدى أَو فِي ضلالٍ مبِينٍ﴾(32) وهو يعلم أنه على هدى، وهم على ضلال إلا أنه يريد مخاطبتهم بأسلوب يستميل قلوبهم إلى الإيمان ويدعوهم إلى التفكير.

هذا غيض من فيض نتعرف من خلاله على بلاغة الأنبياء وكيفية مخاطبتهم ومراعاتهم لأحوال السامعين كما أخبرنا القرآن الكريم.

## التعرف على مقتضى الحال عند البلاغيين:

يعتبر الكلام هو الأثر الناتج عن إرادة التكلم، وهو بهذا يجمع بين الجانب الإنساني من حيث الإرادة والجانب الاجتماعي من حيث فعل الكلام، ويبلغ الكلام أعلى درجات الصدق إذا

تحقق فيه التوافق بين إرادة التكلم والظاهرة اللغوية، وفي إرادة التكلم يظهر الموقف الإنساني وهو مختلف من إنسان إلى آخر، يتطلب هذا اختلاف في الظاهرة الكلامية لأن الكلام رهن بالمواقف التي يقال فيها؛ ولأن لكل مقام مقال كما قال البلاغيون، وهو الأساس المتين الذي تقوم عليه البلاغة العربية والذي يتمثل في مطابقة الكلام لمقتضى حال السامعين مع فصاحته.

وقد تتبعت هذه الظاهرة عند العلماء ووجدت تقارباً بينهم ابتداء بصحيفة بشر بن المعتمر 210هـ، والجاحظ 255هـ، والإمام عبد القاهر الجرجاني 449هـ، والراغب الأصفهاني 502، والسكاكي 626هـ، والطوخي 716هـ والقزويني 739هـ، والدكتور/ تمام حسان، وعندما تحدث العلماء عن مقتضى الحال وقالوا لكل مقام مقال، ولكل كلمة مع صاحبتها مقام وقفوا على عبارتين من جوامع الكلم وتقدموا على زمانهم ألف سنة؛ لأن الاعتراف بفكرتي المقام والمقال باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى، يعتبر الآن من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة، علماً بأنهم قد استفادوا مما ذكره علماء البلاغة أمثال الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابيه دلائل الإعجاز - وأسرار البلاغة أو من خلال نظريته الشهيرة "نظرية النظم"(33).

قال بشر بن المعتمر موضحاً القضايا المهمة المتعلقة بمراعاة الحال والتي تتعلق بالمتكلم والمخاطب "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاماً حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"(34). وقد ربط بشر في هذا التوجيه بين ثلاثة أشياء: أقدار المعاني وأوزان المستمعين وأقدار الحالات، وهو جزء مما يعرف في الدرس الحديث باسم سياق الحال.

وقد أشار الجاحظ إلى ذلك حيث جعل لكل ضربٍ من الحديث ضرباً من اللفظ ولكل نوع من المعاني نوعاً من الأسماء، فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية"(35). ومعلوم أن الكاتب لا يكتب لنفسه وإنما يضع في اعتباره سامعاً أو مستقبلاً، وتوصيل المعلومات لا يتم إلا بين قائل وسامع أو متكلم ومخاطب كما يقول القدماء أو باث ومستقبل كما يفضل أهل الحداثة وغايتهما تحقيق الفهم أو الإفهام.

كما ربط الجاحظ بين حسن الاستماع والقدرة على الكلام البليغ إذ يقول: "من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول".

وقد تحدث الإمام عبد القاهر الجرجاني عن مقتضى الحال بطريقة جديدة تختلف عن الطريقة التي تحدث بها البلاغيون حيث ربط بين الكلام وبين المعنى الذي يعبر عنه حيث يقول: "النظم: هو توخي معاني النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام. فالشاعر البازل أو الكاتب المجيد هو الذي يضع كلامه الموضع الذي تقتضيه تلك المعاني"(36).

وبهذا يرتب الجرجاني عملية النظم منذ البداية، في حال كونها فكرة وحتى تصبح نظماً، وتصويراً مع مراعاة كل السبل التي توصل إلى ذلك والذي يعرف عند البلاغيين: بمطابقة الكلام لمقتضى الحال، ومقتضى الحال هو الاعتبار المناسب وهو ما يسميه الجرجاني بالنظم كما يقول القزويني في الإيضاح.

ويوضح الدكتور/ تمام حسان فكرة المقام فيقول: وفكرة المقام تعتبر المركز الذي يدور حوله علم الدلالة الوصفية في الوقت الحاضر، وهو الوجه الذي تتمثل فيه العلاقات والأحداث والظروف الاجتماعية التي تسود ساعة أداء المقال، ومن المعروف أن إجلاء المعنى على المستوى الوظيفي [الصوتي والصرفي والنحوي]. وعلى المستوى المعجمي فوق ذلك لا يعطينا إلاّ معنى المقال أو المعنى الحرفي كما يسميه النقاد، أو معنى ظاهر النص كما يسميه الأصوليون، ويرى أيضاً أنه لا يمكن الفصل بين المقال والمقام كما حدث من اليهود، عندما سمعوا قوله تعالى: ﴿من ذَا الذِي يقْرِض الله قَرضاً حسناً فَيضاعِفَه له أَضعافاً كَثِيرةً والله يقْبِض ويبسطُ وإِلَيهِ تُرجعون﴾(37) فقالوا: ﴿إن الله فَقِير ونَحن أَغْنِياء﴾(38) فرد عليهم أبو الدحداح وقد فهم المقام فهماً حقيقياً "إن الله كريم استقرض منا وأعطانا"(39)؛ وقد فطن المفسرون إلى التفريق بين المعنى المقالي والمعنى المقامي، وخاصة أن المعنى الدلالي يعتمد على هاتين الدعامتين. ولذلك جعل السكاكي ارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه من ذلك بحسب مطابقة الكلام لما يليق به وهو الذي نسميه مقتضى الحال"(40).

**توضيح المصطلح:**

**الحال:** هو الأمر الداعي للمتكلم إلى إيراد الكلام على وجه مخصوص، أي: إلى أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدي به أصل المعنى خصوصية ما وهي مقتضى الحال.

**مقتضى الحال:** هو تلك الخصوصية، ومطابقة الكلام له بمعنى اشتماله عليه، فإذا كان المخاطب ينكر قيام زيدٍ مثلاً، فإنكاره حال يدعو المتكلم إلى أن يخبره بقيامه مؤكداً "إن زيداً قائم" وتأكيد الخبر هو مقتضى الحال.

**المقامات:** جمع مقام: وهو اسم مكان من قام والمراد به الحال السابق وذلك أن البلغاء كانوا يلقون خطبهم وأشعارهم وهم قيام فأطلق المقام على الحال الداعي إليها لأنه سبب فيه(41).

بعض الأسس التي تبنى عليها مطابقة الكلام لمقتضى الحال وتتمثل في النقاط التالية:

1. صحة اللغة وصوابها ويعني ذلك سلامة اللغة من العيوب.
2. جزالة الألفاظ وقوتها كما قال بشر بن المعتمر: "أن يكون لفظك شريفاً عذباً وفخماً سهلاً".
3. أن يكون المعنى المقصود للمتكلم مطابقاً ومنسجماً مع الألفاظ التي استعملها المتكلم.
4. مطابقة أحوال المخاطبين وذلك بأن نخاطب العامة بخطاب يناسبهم ونخاطب الخاصة بخطاب يناسبهم.
5. لا مانع من مخاطبة العامة بخطاب الخاصة، إن ملك المتكلم القدرة على توصيل المعنى إلى العامة وهذه المنزلة منزلة البليغ التام.
6. مراعاة أقدار المقامات وأقدار المستمعين، فمقام الإطلاق يباين مقام التقيد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام التعريف يباين مقام التنكير.
7. أن يكون المتكلم صادقاً في نفسه، وعنصر الصدق هو التأثير في النفس لأن الذي يستطيع أن يؤثر في النفوس هو الذي يكون صادقاً مع نفسه. وقد جعل العلوي الصدق والوفاء بما في النفس شرطاً للمطابقة حيث يقول: "أن تصل عبارتك كنه ما في قلبك"(42).

**التعرف على بعض الأساليب البلاغية وبعض فنون القول:**

من الواجب على المتكلم أن يتعرف على كل الأساليب البلاغية التي تنمي جانب الوعي وتحيي في نفسه فطنة عاشها العرب الأوائل، وكانت مما يميزهم عن غيرهم من الأمم، ولو نظرنا إلى المنهجية التي استخدمها القرآن الكريم من أجل توصيل الإنسان إلى مقام الوعي فقد تمثلت في بناء قاعدة أساسية تقوم على عدة عناصر:

**الأولى: الدعوة إلى التفكر والتدبر والتفقه والتذكر وفي أغلبها جاءت بأسلوب الاستفهام**

قال تعالى: ﴿قُلْ هلْ يستَوِي الذِين يعلَمون والذِين لا يعلَمون إِنما يتَذَكر أُولُو الْألْبابِ﴾(43)، والتذكر يعتبر من العمليات العقلية التي تعطي بعداً أوسع في النظر العقلي، وكذلك الدعوة إلى التفقه في آيات الله، والتفقه خطوة عقلية أبعد مدى من التفكر، إذ هي الحصيلة التي تنتج عن عملية التفكير وتجعل الإنسان أكثر وعياً لما يحيط به، وأعمق إدراكاً لأبعاد وجوده في الكون، كما تجعله متفتح البصيرة دوماً(44) حيث قال تعالى:﴿ انْظُر كَيفَ نُصرفُ الْآياتِ لَعلهم يفْقَهون﴾(45) وكذلك الدعوة إلى التفكر في جميع مظاهر الوجود سواء الآيات الكونية أو آيات النفس الإنسانية قال تعالى: ﴿وفِي أَنْفُسِكُم أَفَلا تُبصِرون(46) إنه ليس البصر بمعنى نظر العين، بل هو البصيرة العقلية، إذ قال تعالى: ﴿أَولَم يروا أَنا نَسوقُ الْماء إِلَى الْأَرضِ الْجرز فَنُخْرِج بِهِ زرعاً تَأْكُلُ مِنْه أَنْعامهم وأَنْفُسهم أَفَلا يبصِرون﴾(47) فهذه دعوة إلى النظر والتبصر في مظاهر الحياة، أي في الواقع المحسوس

المشاهد أمام العين، فقيمة البصر في القرآن الكريم بقدر ما يؤدي إلى البصيرة العقلية، لذلك ينعي سبحانه وتعالى على هؤلاء الذين لم ينتفعوا بحواسهم انتفاع تدبر(48) فقال تعالى: ﴿لَهم قُلُوب لا يفْقَهون بِها ولَهم أَعين لا يبصِرون بِها ولَهم آذَان لا يسمعون بِها﴾(49) ولذلك بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما سمع قوله تعالى: ﴿إِن فِي خَلْقِ السماواتِ والْأَرضِ واخْتِلافِ الليل والنهار لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ۞ الَّذِين يذْكُرون الله قِياماً وقُعوداً وعلَى جنُوبِهِم ويتَفَكَّرون فِي خَلْقِ السماواتِ والْأَرضِ ربنَا ما خَلَقْتَ هذَا باطِلاً سبحانَك فَقِنَا عذَاب النار﴾(50)، قالت عائشة رضي الله عنها: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بكى عند سماعه هذه الآيات وقال: "ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها"، وكذلك الدعوة إلى التدبر بأسلوب الاستفهام، قال تعالى: ﴿أَفَلا يتَدبرون الْقُرآن أَم علَى قُلُوبٍ أَقْفَالُها﴾(51) وقوله تعالى: ﴿أَفَلا يتَدبرون الْقُرآن ولَو كَان مِن عِنْدِ غَيرِ اللهِ لَوجدوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾(52) والاستفهام هنا بمعنى الأمر: أي: تدبروا ولذلك جعل العلماء أصل الوقوف على معاني القرآن التدبر كما ذكر الزركشي في البرهان(53).

إن هذه الآيات التي وجهت الإنسان إلى التفكر والتدبر والتبصر والتفقه تظهر لنا العمليات العقلية الواسعة التي تعمل على تنشيط الذهن وتيقظه كما تقوي عنصري التأمل والتفكير عند الإنسان وهذا بدوره يرتقي بالإنسان إلى درجة عالية من نوع الإبداع في كل شيء، لأن الذي يفكر ولا يتأمل لا يمكن أن يكون مبدعاً في شيء ولذلك جعل الإسلام النظر العقلي واجباً دينياً، وجعل ممارسة الوظائف العقلية فريضة ربانية ومسئولية حتمية لا يستطيع الإنسان الفكاك منها وسيحاسب على مدى حسن أو إساءة استخدامه لها.

**الثاني: التحرر العقلي من تبعية التقليد الأعمى**

إن إعمال العقل وتنشيط الذهن وحسن التفكر والفطنة والذكاء والإبداع لا يقبل تقليداً أعمى، لأن التقليد يلغي عمل العقل ويلغي كل المواصفات الآدمية التي يجب على الإنسان أن يتمتع بها، لأن المقلد حين يقبل قول الغير دون حجة أو برهان أو دليل فإنه يصبح إمعة، وهذا يتعارض مع ما نادى به القرآن، ويتعارض مع توصيات الرسول عليه الصلاة والسلام، ولذلك ذم القرآن الكريم تقليد الآباء والأجداد الذين اتصفوا بعدم التعقل وعدم العلم وحرموا أنفسهم حقّ التفكير والتأمل قال تعالى: ﴿وإِذَا قِيلَ لَهم اتَّبِعوا ما أَنْزلَ الله قَالُوا بلْ نَتَّبِع ما أَلْفَينَا علَيهِ آباءنَا أَولَو كَان آباؤُهم لا يعقِلُون شَيئاً ولا يهتَدون﴾(54) وقال تعالى: ﴿وإِذَا قِيلَ لَهم تَعالَوا إِلَى ما أَنْزلَ الله وإِلَى الرسول قَالُوا حسبنَا ما وجدنَا علَيهِ آباءنَا أَولَو كَان آباؤُهم لا يعلَمون شَيئاً ولا يهتَدون﴾(55) إلاّ أن القرآن الكريم أراد أن يعيدهم إلى المنطق العقلي وإلى التفكير السليم حتى يتحللوا من هذا القيد الجاهلي القاتل، الذي يقتل كل شيء في الإنسان، فقدم لهم عرضاً يدعوهم إلى الاختيار، ومعلوم لدينا أن

الاختيار لا بد وأن يكون بعد تفكر وتدبر قال تعالى: ﴿قَالَ أَولَو جِئْتُكُم بِأَهدى مِما وجدتُم علَيهِ آباءكُم ﴾(56) يريـد منهـم موقفاً مسئـولاً فجاءت الإجابـة الحقيقية منهم ﴿إنا بِما أُرسِلْتُم بِهِ كَافِرون﴾(57).

**الثالث: الاعتماد على منطق الحجة والبرهان وذلك لتوضيح المعاني وإظهار الحقائق**

فيستخدم المتكلم أساليب متعددة من أجل توصيل المعلومات حتى تحقق الكلمة هدفها، فيأتي كلامة موثقاً واضحاً ومدعماً بالأدلة والبراهين، فيستخدم أسلوب المفارقات، والتشبيهات والأمثال، والانتقال من العموم إلى الخصوص، والتحليل... وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على وضوح الهدف وصفاء الذهن وإعمال العقل لدى المتكلم ومن أمثلة ذلك الجمع بين الشيء وضده ليميز المخاطب بين أمرين، قال تعالى: ﴿أَفَمن يخْلُقُ كَمن لا يخْلُقُ أَفَلا تَذَكرون﴾(58) فقابل بين الذات الإلهية وبين ما ابتدعوا من أصنام ليستدل بهذه المقابلة على بطلان ما زعموا، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رب السماواتِ والْأَرضِ قُل الله قُلْ أَفَاتخَذْتُم مِن دونِهِ أَولِياء لا يملِكُون لِأَنْفُسِهِم نَفْعاً ولا ضراً﴾(59) فقد قابل بين من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً وبين الواحد القهار القادر على كل شيء. ومما يعمل على توضيح المعنى في التمثيل والتشبيه خاصة تشبيه المعاني العقلية بمعان حسية، لأن المعاني العقلية المحضة يكتنفها الغموض "ولا يقبلها الحس والخيال فإذا ذكر ما يساويها من المحسوسات ترك الحس والخيال والوهم تلك المنازعة وانطبق المعقول على المحسوس وحصل به الفهم والوصول إلى المطلوب"(60).

قال تعالى: ﴿مثَلُ الَّذِين اتخَذُوا مِن دونِ اللهِ أَولِياء كَمثَلِ الْعنْكَبوتِ اتخَذَتْ بيتاً وإِن أَوهن الْبيوتِ لَبيتُ الْعنْكَبوتِ لَو كَانُوا يعلَمون﴾(61) فقد شبه القرآن اتخاذهم الأولياء من دون الله كاتخاذ العنكبوت بيتاً ولما قصد بالتشبيه بيتها الذي لا يقيها من شيء، شبهت الآلهة التي لا تنفع ولا تضر به، وبهذا الربط بين الأمر المعنوي والأمر الحسي اتضح المعنى وزال الغموض الذي هو من صفات القضايا المعنوية والعقلية.

وكذلك الانتقال من العموم إلى الخصوص على أن يمثل الأمر الخاص جزءاً يخدم الأمر العام قال تعالى: ﴿قَالَ فَمن ربكُما يا موسى۞قَالَ ربنَا الَّذِي أَعطَى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَه ثُم هدى۞قَالَ فَما بالُ الْقُرونِ الْأُولَى۞قَالَ عِلْمها عِنْد ربي فِي كِتَابٍ لا يضِلُّ ربي ولا ينْسى۞الَّذِي جعلَ لَكُم الْأَرض مهداً وسلَك لَكُم فِيها سبلاً وأَنْزلَ مِن السماءِ ماء﴾(62) فقد قال سبحانه وتعالى على لسان موسى كلمة جامعة كاشفة لمعنى الربوبية، ومع الربوبية العبادة وكمال الأولوهيه فهو سبحانه مانح الوجود لكل شيء في هذا الكون، وهو مانح الهداية لمن اهتدى، ثم أخذ القرآن بعد هذا التعميم الجامع، يبين جزئيات داخلةٍ فيه(63)، فقال: "الله الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك فيها سبلا وأنزل من السماء ماء"

وهذه الجزئيات كلها تخدم عموم الفكرة.

**التعرف على الخصائص الأسلوبية لفن الخطابة:**

الخطابة: هي الفن المنطوق الذي يلقى في جمهور من الناس بهدف الإقناع والتأثير.

ولذلك كان لابد من استخدام البراهين العقلية لتحقيق الغاية الأولى والانفعالات الوجدانية لتحقيق الغاية الثانية، وهذه الخاصية وحدها تجعل أسلوب الخطابة منوعا يجمع بين تقرير الحقائق وإثارة العواطف، ولذلك تسمى الخطابة الفن العملي كما تسمى "الفن الكامل، لجمعها في الإلقاء بين شخصيتي الخطيب الحسية والمعنوية، فإن الخطيب يستخدم جسمه في الخطابة فيشير بيديه، ويتحرك برأسه، ويشكل أسارير وجهه، وكل هذه الحركات عنصر هام في تأثير الخطاب، ولذلك، لابد للمتكلم من معرفة الخصائص الأسلوبية لهذا الفن وتتمثل في التالي:

1. القوة: ومصدرها الأول انفعال الخطيب وقوة عقيدته ويقينه بما يقول، ثم تظهر في عبارته المسجوعة أو المزدوجة، وكلماته المؤثرة الجزلة لتكون موسيقى قوية.
2. التكرار: لتثبيت الأفكار في الأذهان وتمكين السامعين من الفهم.
3. تنوع الأساليب: فيكون خبراً وأمراً ونهياً واستفهاماً حتى لا يكون رتيباً، وعليه أن يمثل الانفعالات اللازمة للخطابة والتي تمتلئ بها نفس الخطيب.
4. الخطابة فيها التقرير لبيان الرأي ودعمه بالبرهان، وفيها القصص والوصف الموجزان، يستعين بهما الخطيب في الإقناع والتأثير، "وقد يكون الكلام الخطابي مجملاً بالأشكال المنطقية في مقام الرد على حجج الخصوم وكشف زيفها، وبيان وجه البطلان فيها، وكثيراً ما تستخدمه الخطب التي تقوم على المحاجة والجدال والبراهين والأقيسه المنطقية لبيان وجه البطلان في كلام الخصم" ص143، القرآن – النظر العقلي.
5. يجب أن تكون العبارة مع – قوتها- سهلة مفهومة للسامعين، خالية من الغرابة والتعقيد، حتى يستطيع الجمهور متابعته ومسايرته، إذ ليست هناك فرصة للسامعين سوى لحظات الاستماع، ولا يملك هو سوى فرصة الإلقاء، فإن الخطابة فن شفوي، على أنه إذا كتب نقص بهاؤه، وربما مضت ظروفه المناسبة فضاعت فائدته.

السامعون هم المقياس السديد لمستوى اللغة ودرجتها، فقد يكونون من الخاصة وبذلك يكون الأسلوب سامياً عالياً، وإذا كانوا من العامة كان الأسلوب بسيطاً سهلاً، وإذا كان جمهوراً عاماً غاب الخطيب ناحية السهولة والوضوح ليضمن الإفهام للجميع.

ولابد للخطيب أن يكون خبيراً بنفسية السامعين قادراً على قراءة تقاطيع وجوههم، وما تخفيه نظراتهم، وقادرا على الاندماج معهم وهذا لا يتحقق للمتكلم إلا بعد خبرة وممارسة يتميز بها المتكلم عن غيره.

## التعرف على أسلوب الحوار والمناظرة:

يقوم هذا الأسلوب على وضوح الفكرة، ودقة اللفظ ودلالته على معناه، حتى يحقق الإقناع والتأثير في الطرف المقابل. وهذا يتطلب وعياً وفطنة من الطرفين، ولما كان هذا الأسلوب هو تعبير عن قضية مختلف عليها فإنه يلزم:

أولاً: تحديد القضايا المختلف عليها التي سيدور حولها الحوار.

ثانياً: حشد الأفكار والحقائق التي تتجه إلى تصحيح وتصويب الفكرة أو إبطالها.

ثالثاً: حشد الأدلة والبراهين المؤيدة لذلك.

رابعاً: احترام وجهات النظر المختلفة حتى تمهد للآخرين احترام ذلك وحصول الإقناع بأفكارك.

خامساً: قد يستعمل الأسلوب الأدبي من عاطفة وخيال لإحداث تأثير نفسي في الطرف المناظر، وذلك ينقل الفكرة من إطارها العقلي إلى إطارها الفني.

سادساً: ربما يقسم موضوع المناظرة إلى نقاط يدور حولها الحوار، وقد يتحول الأسلوب إلى سؤال وجواب.

سابعاً: الانتقال من دليل إلى دليل آخر، أو من حجة إلى حجة أخرى إذا لم يفهم الخصم وجه الدلالة من الدليل الأول أو عند فهمه وجه الدلالة إلاّ أنه يقصد المغالطة، وهذا ما حدث بين إبراهيم عليه السلام والنمرود، وقال تعالى: ﴿أَلَم تَر إِلَى الَّذِي حاج إِبراهِيم فِي ربهِ أَن آتَاه اللَّه الْملْك إِذْ قَالَ إِبراهِيم ربي الَّذِي يحيِي ويمِيتُ قَالَ أَنَا أُحيِي وأُمِيتُ قَالَ إِبراهِيم فَإِن اللَّه يأْتِي بِالشَّمسِ مِن الْمشْرِقِ فَأْتِ بِها مِن الْمغْرِبِ فَبهِتَ الَّذِي كَفَر واللَّه لا يهدِي الْقَوم الظَّالِمِين﴾(64).

## التعرف على الأساليب البلاغية التي تنمي الفكر وتنشط الذهن:

ومنها نماذج من أسلوب الاستفهام، قال تعالى: ﴿أَفَلَم ينْظُروا إِلَى السماءِ فَوقَهم كَيفَ بنَينَاها وزينَّاها وما لَها مِن فُروجٍ۝والْأَرض مددنَاها وأَلْقَينَا فِيها رواسِي وأَنْبتْنَا فِيها مِن كُلِّ زوجٍ بهِيجٍ۝ تَبصِرةً وذِكْرى لِكُلِّ عبدٍ منِيبٍ﴾(65) إنها دعوة للتفكر في ملكوت الله، في ملكوت السماوات والأرض، ليكون الإيمان مبنياً على الفهم والإقناع، لا على القسر والتقليد، ولذلك استخدم أسلوب الاستفهام الذي يحمل معنى الأمر أي انظروا، وحينما يرجع الإنسان إلى نفسه ليسألها هل هي ناظرة متأملة أم لا. "هذا الحوار الذاتي بين الإنسان ونفسه ينشط الفكر ليقود

الإنسان إلى التأمل والتفكر، ومنه إلى الإبداع فتوجد هذه العقلية المفكرة المبدعة... وعليه لن يكون هناك مجال للجمود والخمول"(66).

ومن الأساليب التي تُعمل الفكر بأسلوب الالتفاف والذي يمثل: التعبير عن معنى من المعاني بطريق التكلم أو الخطاب أو الغيبة بعد التعبير عن ذلك المعنى نفسه بطريق آخر.

قال تعالى: ﴿وما لِي لا أَعبد الذِي فَطَرني وإِلَيهِ تُرجعون﴾(67) فتم الانتقال من التكلم إلى الخطاب ليبين للمخاطبين أنه ما قصد نفسه بل أرادهم بكلامه فقال "وإليه ترجعون" ولم يقل وإليه أرجع، وبين الزمخشري الفائدة البلاغية لهذا الأسلوب قائلاً "إن الكلام نقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه، من إجرائه على أسلوب واحد، فإن السامع ربما يحمل من أسلوب، فينقله إلى أسلوب آخر تنشيطاً له في الاستماع، واستمالة له في الإصغاء"(68) وبهذا يدرك الزمخشري أن إيقاظ النفس وتحريكها من أهم أغراض الفن الأدبي ولذلك كانت كل خاصية من خصائص الصياغة تحدث لوناً من التأثير والإيقاظ هي خصوصية بلاغية متمايزة يحرص عليها الأسلوب البلاغي. ومما يزيد الوعي عند المتكلم إدراكه لمقاصد الأشياء واستخدامه لها، كحذف وجه الشبه في الخطاب وهو ما يعرف عند البلاغيين بالتشبيه المجمل، فإذا كان وجه الشبه المحذوف واضحاً نحو قولنا: "محمد كالأسد" فإنه يتساوى في معرفته العامة والخاصة ولا يحتاج إلى تأمل، وأما إذا كان وجه الشبه المحذوف دقيقاً لا يعرفه إلا الخاصة، فهو في هذه الحالة يحتاج إلى تأمل، وأما إذا كان وجه الشبه المحذوف دقيقاً لا يعرفه إلاّ الخاصة، فهو في هذه الحالة يحتاج إلى تأمل وتفكر من أجل إدراكه ومعرفة حقيقته، ومن هذا القبيل قول فاطمة بن الخرشب عندما سئلت عن بنيها فقالت: "هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها"(69) قاصدة بذلك: التعبير عن التناسب الكلي بين أبنائها، فلا فرق بين أحدهم ولذلك لا يستطيع الإنسان أن يصل إلى مقصدها، أي تحديد وجه الشبه إلاّ بعد إعمال الفكر وتنشيط الذهن اللذان يزيدان نسبة الوعي عند المتكلم، وكأن حذف وجه الشبه يعمل على تحقيق هذا الهدف.

ومما يزيد الوعي عند المتكلم: فهمه ومعرفته بالاستعارات وأبعادها الأدبية والفنية والتي من خلالها يملك القدرة على نقل الكلمات من مكانها التي وضعت فيه إلى مكان آخر لغرض ما يريده، حتى يأتي هذا الخطاب معبراً ومناسباً للمعنى المقصود ومحققاً الهدف من الخطاب، وقد علمنا القرآن الكريم ذلك، فقال تعالى: ﴿وتَركْنَا بعضهم يومئِذٍ يموج فِي بعضٍ﴾(70) فكلمة يموج نقلت من مكانها وهو البحار، واستخدمت في مكان آخر لما تتضمنه من معان تناسب المقام الجديد وهو الاضطراب وعدم الاستقرار والحركة المتلاحقة، غير المنتظمة.

وكذلك أسلوب الحكيم الذي يضع حدوداً للمتكلم ويفرض عليه وعياً في خطابه، فلا يلقى بالكلام على علاته ولا يجيب عن سؤال إلا بقدر ما تحققه هذه الإجابة من فائدة، كما يدعوه إلى حمل الكلام الذي يسمعه على غير ما يحتمل إن دعت الحاجة إلى ذلك. هذا المنطق لا يتحقق إلاّ من إنسان يتملكه الوعي والفطنة ولا يصدر عنه إلاّ خطابا واعياً ولنتأمل سوياً، ما ذكره علماء البلاغة عندما عرفوا أسلوب الحكيم بقولهم "تلقى المخاطب بغير ما يترقبه أو يتوقعه، إما بترك سؤاله والإجابة عن سؤال لم يسأله، وإما بحمل كلامه على غير ما كان يقصد، تنبيهاً له، على أنه كان ينبغي أن يسأل هذا السؤال أو يقصد هذا المعنى"، وهنا تتحقق المشاركة الفعلية بين السائل والمجيب، فكل واحد يعي ما يقوله الآخر، وهذا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما سأله الصحابة عن سبب تغير الأهله فأجابهم عن الحكمة من وراء هذا التغيير، ولو بحثنا عن العلة في ذلك الأسلوب: لوجدنا الأمر متعلق باعتبار الوعي والإدراك عند المخاطبين، علماً بأن العرب في ذلك الوقت أبدعوا في جانب البيان ولم يبدعوا في جانب العلوم فلو أجابهم عن السبب، فإنهم لم يستوعبوا منها شيئاً ولازدادوا بهذه الإجابة ريباً وشكاً، وقد سجل القرآن هذا الأمر فقال تعالى: ﴿يسأَلونَك عنِ الْأَهِلةِ قُلْ هِي موَاقِيتُ ِللناسِ والْحج ﴾(71).

ومن أسلوب الحكيم تغيير المقاصد لاعتبارات أدبية كما في قول الشاعر:

**قلت: ثقلت إذ أتيت مراراً ... قال ثقلت كاهلي بالأيادي**
**قلت: طولت: قال أوليت طولا ... قلت أبرمت: قال: حبل ودادي**

ففي البيت الأول يقول له: قد ثقلت عليك وحملتك المشقة بكثرة زياراتي لك فيصرفه الشاعر عن رأيه في أدب، ويذهب عنه الحرج، وينقل كلمته من معناها إلى معنى آخر فيقول له: إنك ثقلت كاهلي بما أغدقت على من نعم"(72).

وأسلوب الحكيم في هذا السياق يشترك مع القول بالموجب، وهو أحد الفنون البديعية على أن كلاً منهما يعمل على إخراج الكلام على غير مقتضى الظاهر، ولذلك جعل البلاغيون من أقسام هذا الفن: "حمل لفظٍ وقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله الكلام"(73) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ومِنْهم الذِين يؤْذُون النِبي ويقُولُون هو ُأذُن قُلْ ُأذُن خَيرٍ لَكُم﴾(74) نعم، هو أذن، ولكن نِعم الأذن. أي هو كما قلتم إلاّ أنه أذن خير، لا شيء أبلغ في الرد من هذا الأسلوب، لأن فيه إطماعاً في الموافقة وكرهاً إلى إجابتهم في الإبطال"(75).

وكما هو مطلوب من المتكلم أن يعي إجابته فيما يسأل عنه فتأتي الإجابة على قدر السؤال ووفق حال المخاطب، فعليه أيضاً أن يعي سؤاله فلربما يحتاج يوماً أن يسأل عن شيء موهما أنه لا يعرفه لغرض في نفسه وهذا لا يتحقق إلاّ من صاحب فطنه، وقد سمى البلاغيون

هذا الفن بتجاهل العارف: إلاّ أن السكاكي رفض تسمية هذا النوع بهذا الاسم لوروده في كلام الله وسماه "سوق المعلوم مساق غيره لنكته، كالمبالغة في المدح أو الذم أو التعظيم أو التحقير أو التقرير أو التعريض أو التعجب، وعرفه ابن أبي الأصبع المصري بقوله "هو أن تسأل عن شيء موهماً أنك لا تعرفه، وأنه مما خالجك فيه الشك والريبة"(76) ومن قول الشاعر نصر بن سيار:

**أرى خلال الرماد وميض جمرٍ ويوشك أن يكون له ضرام**
**فإن النار لزندين تورى وإن الحرب أولها كلام**
**أقول من التعجب ليتَ شعرى أأيقاظ أمية أم نيام**

فجاء التعجب بصورة السؤال مع علمه بحقيقة ما يسأل عنه.

ويلتقى هذا الأسلوب مع السؤال عن معلوم في باب الاستفهام وقد ورد في كتاب الله تعالى لأغراض بلاغية متعددة مثل التقرير في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعلْتَ هذَا بِآلِهتِنَا يا إِبراهِيم﴾(77) والتعجب في قوله تعالى: ﴿أبشَراً مِنا واحِداً نَتبِعه﴾(78).

وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يكون الواحد منا فطنا ذكيا في خطابه في معاملاته فقال "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين" لأنه يفترض في المؤمن أن يكون ذكياً فلو لم يكن كذلك سيلدغ مائة مرة من الجحر نفسه، وهذا ما نجده في إجابته عندما سئل من قبل أعرابي من الصحراء أثناء خروجه لمعركة بدر وكان معه أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال لهم الأعرابي "ممن أنتم" فلم يرد أن يعلم السائل بحقيقة أمرهم" فقال "من ماء" ففهم الرجل أنهما من قبيلة عربية في بلاد العراق اسمها ماء، إلاّ أن الرسول عليه الصلاة والسلام أراد: أننا مخلوقون من ماء. فوري عن الرجل الحقيقة لأن المقام يقتضي ذلك وهذا ما يعرف عند البلاغيين بأسلوب التورية، هذا الأسلوب الذي يعلمنا فطنة الخطاب، ولذلك يقول عنه العلوى "والتورية لا تخلو عن تفنن في الكلام، واتساع فيه، وتدل على تصرف بالغ، وقوة على تصريف الألفاظ، واقتدار على المعاني"(79).

ومن الأساليب البيانية التي تنمي جانب الوعي في الخطاب وعند المتكلم أسلوب التعريض: الذي يفهم عن طريق الإشارة وليس له لفظ أو صيغة تدل عليه، والعرب تستعمل التعريض في كلامها، فتبلغ إرادتها بوجه ألطف وأحسن من الكشف والتصريح، ويعيبون الرجل إذا كان يكاشف في كل وجه ويقولون فلان لا يحسن التعريض(80) ومنه قول امرأة اشتكت أمير المؤمنين عمر رضي الله عنها "يا أمير المؤمنين إني أشكو إليك قلة الفأر في بيتي" وكلامها هذا يتضمن عدة مسائل:

1. التعريض بالخليفة: حيث أشعرته بأنه قصر في حقها، فكيف للخليفة أن ينساها وقد وصلت إلى هذا الحد.
2. الدلالة على شدة الفقر: حيث لم يجد الفأر في بيتها شيئاً.
3. الدلالة على عزة نفسها فقد طلبت حاجتها بطريقة غير مباشرة.

وكل هذا إن دل على شيء فإنما يدل على فطنتها ووعيها وذكائها في الخطاب.

ومنه في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(81) فهو تعريض بأن الكفار على ضلال، والرسول ومن معه على هدى، ولم يصرح لهم بذلك، لأنهم لو تفكروا في أحوال أنفسهم وما هم فيه من قطع للأرحام وارتكاب للفواحش، وحال الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه وما هم عليه من صلة للأرحام واجتنابٍ للآثام لعلموا أنهم على ضلال، والرسول ومن معه على الحق، وبعدها لم يجدوا طريقاً إلاّ للدخول في الإسلام واتباع محمد عليه الصلاة والسلام.

بعد هذا العرض لهذه الأساليب يتبين لنا أن الخطاب الواعي لا يتحقق إلاّ: من متكلم يمتلك القدرة العالية في التعرف على فنون القول بعد علمه ومعرفته بهذه الفنون والأساليب وامتلاكه زمامها، لتصبح رصيداً علمياً يختار منه ما يناسب المقام ساعة الخطاب، وقد يسرت لنا البلاغة عدداً كبيراً من الأساليب البيانية ساعدتنا في الوصول إلى تحقيق خطاب واعٍ صادر عن متكلم يتملكه الوعي، وبهذا يتحقق الهدف من الخطاب ويصل إلى قلب السامع.

وفي الختام أسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد وحسن القبول.

## الحواشي

---

(1) نصوص من القرآن الكريم، د. عبد القادر حسين، ص90، مكتبة الجامعة، قطر، 1987م.

(2) الصناعتين العسكري، ص167، طبعة عيسى الحلبي، 1952م.

(3) انظر: بتصرف لغة القرآن، د. محمد قلعجي، ص67؛ وانظر: نصوص من القرآن، د. عبد القادر حسين، ص96.

(4) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص17، دار الشروق.

(5) الإعجاز البلاغي، د. محمد أبو موسى، ص53.

( 6) سورة الرحمن أية: (1-4).

( 7). أضواء بلاغية د. عبد القادر حسين، صـ4.

( 8). سورة فصلت أية: (3).

( 9). سورة التوبة أية: (38).

( 10). سورة القصص أية: (7).

---

( 11). سورة إبراهيم أية: (1)

(12) لغة القرآن د.محمد قلعجي ص49، دار النفائس، بيروت، ط1، 1988م.

(13) إعجاز القرآن "مصطفى صادق الرافعي" ص285، دار الكتاب العربي بيروت.

(14) الإعجاز البياني، د. محمد أبو موسى ص15، مكتبة رهبه، القاهرة، ط (1) 1984م.

(15) إعجاز القرآن، الرافعي، ص281.

(16) إعجاز القرآن، الرافعي، ص279.

(17) الانبعاق: هو الاندفاع في الكلام وهو مظنة الخطأ وقلما سلم صاحبه من زلل، لأن فيه زيادة عن معانيه وعن حاجته.

(18) انظر: بتصرف: بلاغة النبي، اجتماع كلامه وقلته، د. إسماعيل نواهضة، ص11، مجلة الإسراء العدد السادس 1996م.

(19) سورة النساء الآية 63.

(20) الظلال، سيد قطب، ج2، ص695، دار الشروق، ط7 1978م.

(21) القرآن والصور البيانية، د. عبد القادر حسين، ص292، دار المنارة القاهرة ط1، 1991م.

(22) سورة نوح آية 5-7.

(23) سورة نوح آية 28.

(24) سورة الأنبياء آية 57-67.

(25) زبدة التفسير في فتح القدير، محمد سليمان الأشقر، ص54، وزارة الأوقاف الكويت، ط1 1985م.

(26) سورة البقرة آية 258.

(27) سورة الزمر: الآية 13.

(28) سورة يس: الآية 14-16.

(29) البلاغة فنونها وأفنانها د. فضل عباس، ص13، دار الفرقان عمان، ط2، 1989م.

(30) سورة القصص: الآية 36-37.

(31) علم البيان، د. محمد بسيوني، ص258، ط1، 1988م.

(32) سورة سبأ: الآية 24.

(33) انظر: بتصرف: نظرية مقتضى الحال بين أوستين والبلاغة العربية، ص72، د. نعمان علوان، مجلة كلية الآداب، منها العدد 7 يناير 2001م.

(34) البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص85، تقديم د. فوزي عطوى، دار صعب، بيروت.

(35) كتاب الحيوان للجاحظ، ج1، ص30، تقديم د. فوزي عطوى، دار صعب، بيروت.

(36) دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني، ص33، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخافجي، القاهرة.

(37) سورة البقرة آية 245.

(38) سورة آل عمران آية 181.

(39) اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان، ص337، الهيئة المصرية للكتاب، 1979م.

---

(40) مفتاح العلوم: السكاكي، ص168، ضبطه وشرحه نعيم زرزور – دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983م.

(41) بغية الإيضاح: عبد القادر الصعيدي، ص26، مكتبة الآداب، القاهرة.

(42) الطراز –العلوى- جـ1 صـ122 دار الكتب العلمية – بيروت 1982م.

(43) سورة الزمر آية 9.

(44) تهافت العلمانية د. عماد الدين خليل ص35، مؤسسة الرسالة، بيروت1983م.

(45) سورة الأنعام آية 65.

(46) سورة الذاريات آية 21.

(47) سورة السجدة آية 27.

(48) القرآن والنظر العقلي، فاطمة إسماعيل ص67 المعهد العالمي للفكر الإسلامي 1981م.

(49) سورة الأعراف آية 179.

(50) سورة آل عمران آية 190- 191.

(51) سورة محمد آية 24.

(52) سورة النساء آية 82.

(53) البرهان في علوم القرآن – الزركشي ج2، ص181.

(54) سورة البقرة آية 170.

(55) سورة المائدة آية 104.

(56) سورة الزخرف آية 24.

(57) سورة سبأ آية 34.

(58) سورة النحل آية 17.

(59) سورة الرعد آية 16.

(60) التفسير الكبير – الفخر الرازي ج9 ص120، دار الفكر، بيروت 1985.

(61) سورة العنكبوت آية 41.

(62) سورة طه آية 49 –50.

(63) القرآن والنظر العقلي، فاطمة إسماعيل ص112.

(64) سورة البقرة آية 258.

(65) سورة ق آية 6 – 9.

(66) العقل العربي وإعادة تشكيله، عبد الرحمن الطريري، كتاب الامة ص90، عدد 35 ط1، قطر 1413هـ.

(67) سورة يس آية 22.

(68) الكشاف– الزمخشري ج1، ص64، طبعة عيسى الحلبي، وانظر أسلوب الالتفات، د. محمد نزيه فراج ص31، ط1، 1983م.

(69) الإيضاح – الخطيب القزويني – ص347، تحقيق د. عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت ط1، 1975.

---

(70) سورة يس آية 22.

(71) سورة البقرة آية 189.

(72) علم البديع – عبد العزيز عتيق ص177، دار النهضة العربية – بيروت 1984م، وبلاغة القرآن الكريم، د. محمد علوان – د. نعمان علوان، ص271، الدار العربية للنشر، القاهرة.

(73) فن البديع: د. عبد القادر حسين ص101، دار الشروق 1998م.

(74) سورة التوبة آية 61.

(75) فن البديع، د. عبد القادر حسين، ص101، والأذن: هو الرجل الذي يصدق كل ما يسمع ويقبل كل ما يقال.

(76) تحرير التجبير، ابن أبي الأصبع المصري ص94.

(77) سورة الأنبياء آية 62.

(78) سورة القمر آية 24.

(79) الطراز – العلوي ج3 ص63، دار الكتب العلمية – بيروت.

(80) النهاية في التعريض والكناية – الثعالبي ص45، الطبعة الأميرية المكية.

(81) سورة سبأ آية 24.